

الكتابة العربية قبل الإسلام (جذورها وخصائصها)
Arabic writing before Islam :its roots and characteristics

أ. بودين قدوري (دكتورالي)
جامعة الدكتور مولاي الطاهر، سعيدة.

تاريخ النشر: 2019/09/29	تاريخ القبول: 2019/05/22	تاريخ الإرسال: 2019/01/27
ملخص: تهدف هذه الدراسة إلى إلقاء الضوء على حالة الكتابة عند العرب قبل الإسلام، وذلك من خلال دراسة جذورها وتاريخها وأين وجدت ومن أين جاءت إلى العرب، ثم دراسة خصائصها وحيثياتها قبل نزول القرآن الكريم الذي دلت بعض آياته على أن العرب قبله كانوا أميين وأنه هو الكتاب الموثق الأول في تاريخهم.		
الكلمات المفتاحية: الكتابة ، قبل الإسلام، حيثيات، خصائص.		
Summary : The purpose of this study is the Clarification of the Status of writing when the Arabs before Islam By studying the roots and history of writing where it is found and where it is came to the Arabs,Thenstudy their characteristics and Merits of WritingBefore the descent of the Koran,Some verses of the Koran indicated that the Arabs were illiterate, and The Koran was the first book documented When the Arabs		
Keywords : Writing, before Islam, rationales, characteristics.		

الشائع بين كثير من الناس أنّ العرب قبل الإسلام كانوا في جاهلية عمياء وعصبية مقبلة، لا يقرءون ولا يكتبون، وأنّ الكتابة عندهم كانت قليلة جدا، بل بالغ بعض الدارسين فجعلوا الكتابة عند العرب كانت منعدمة تماما واستدلوا على ذلك بقوله تعالى: "هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ" (الجمعة:02) وبقوله صلى الله عليه وسلم "إنّا أمة لا نكتب ولا نحسب"¹ وهذا غلط للحق، ونقص في التحري، فلقد وجد كتاب بيثرب يكتبون بكتاب مكة، وآخرون في أماكن أخرى يكتبون بكتابهم أيضا، وعلى هذا الأساس ارتأينا أن نجعل هذه الأسطر حول الكتابة عند العرب قبل الإسلام تاريخها وخصائصها ومن أول من خط بها.

الكتابة لغة: مصدر كَتَبَ إذا خطَّ بالقلم، أو ضم أو جمع أو خاط.

جاء في لسان العرب مادة (كتب): "الكتاب المعروف، والجمع كُتِبَ، وكتب الشيء يكتبه كُتِبًا وكتابة إذا خطّه"².

ويعرفها "القلقشندي" بقوله "الكتابة في اللغة مصدر كتب يكتب كُتِبًا وكتابة ومكتبة، وكتبة فهو كاتب ومعناها الجمع، يقال تَكَتَّبَ القوم إذا اجتمعوا، وفيه يقال لجماعة الخيل كتبه، ومن ثم سُمِّي الخط كتابة لجمع الحروف بعضها إلى بعض، كما سُمِّي خرز القرية كتابة لضم بعض الخرز إلى بعض"³.

وجاء في مقاييس اللغة "الكتابة في اللغة تتضمن معاني عدة منها: تصوير اللفظ بالحروف الهجائية، والقضاء، والتعليم، والاستنساخ، والفرض، والحكم، والقدر، والجمع"⁴.

وأما اصطلاحا: فهي أعمال القلم باليد في تصوير الحروف ونقشها"⁵.

¹ حديث لا أصل له، ذكره الزبيدي في معجمه "تاج العروس" مادة "أمم"

² ابن منظور (محمد بن مكرم بن علي) - لسان العرب - دار صادر - بيروت - د.ط - سنة 1968 - ج: 13.

³ القلقشندي (أحمد بن علي) - صبح الأعشى في صناعة الإنشا - د.ط - سنة 2004 - ج: 01 - ص: 51.

⁴ ابن فارس (أبو الحسن أحمد) - مقاييس اللغة - شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر - ط: 2 - سنة 1969 م - ج: 05 - ص: 121.

⁵ علي محمد الضباع - سمي الطالبين في رسم وضبط الكتاب المبين - طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - جمهورية مصر العربية - د.ط - د.ت - ص: 18.

وعرّفها ابن خلدون -رحمه الله- بقوله "الخط والكتابة من عداد الصنائع الإنسانية، وهي رسوم وأشكال حرفيّة على الكلمات المسموعة الدالة على ما في النفس"⁶.

وأما الدارسون المحدثون فيعرّفون الكتابة تعاريفَ متنوعة من أبرزها "إعادة ترميز اللغة المنطوقة في شكل خطّي على الورق، من خلال أشكال ترتبط ببعضها وفق نظام معروف اصطّلح عليه أصحاب اللغة في وقت ما، بحيث يعدّ شكلا من هذه الأشكال مقابلا لصوت لغوي يدل عليه، وذلك بغرض نقل أفكار الكاتب وآرائه ومشاعره إلى الآخرين بوصفهم الطرف الآخر لعملية الاتصال"⁷.

أول من وضع الكتابة العربية ومن أين وصلت إلى العرب: اختلفت الدراسات حول هذا الأمر فكثرت الآراء حوله وكان منها:

1- أول من وضع الكتابة العربية آدم عليه السلام كغيرها من سائر الكتابات، حيث أنّه كتب الكتابات كلّها في طين وطبخه (أحرقه) ودفنه قبل موته، وبعد الطوفان وجد كل قوم كتابا فتعلموه بإلهام إلهي ونقلوا صورته واتخذوها أصل كتابتهم"⁸.

2- قيل أنّ أول من وضع الكتابة العربية هو كاتب الوحي لسيدنا هود عليه السلام وتعلّمها منه مُرامر بن مرة، وأسلم بن سدرة، وعامر بن جدرة⁹، وأخذها عنهم أهل الأنبار ومنهم انتشرت الكتابة في العراق والحيرة وغيرها، فتعلّمها بشر بن عبد الملك أخو أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل، وقد سافر بشر هذا مع حرب إلى مكة وتزوج بالصهباء بنت حرب، فتعلّم منه حرب وجماعة من أهل مكة الكتابة، وبذلك كثر من يكتب بها من قريش .

⁶ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) – المقدمة: ديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر- د. ط - سنة 1984- ص: 417.

⁷شليبي مصطفى رسلان وموسى محمد محمود – مهارات الاتصال باللغة العربية – دار القلم للنشر والتوزيع – د. ط - سنة 2007- ص: 137.

⁸علي محمد الضباع – سمير الطالبين في رسم وضبط الكتاب المبين – ص: 18.

⁹هؤلاء الرجال الثلاثة من عرب طيء.

3- وقيل إنّ أوّل من وضعها هو سيّدنا إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام وكانت كتابته بحروف متّصلة بعضها ببعض حتى الألف والراء، إلى أنّ فصلها ثلاثة من أولاده، أو نزار بن معد بن عدنان¹⁰.

4- وقيل ستّة من ملوك مدين ببلاد العرب هم الذين وضعوا الكتابة العربية بحسب حروف أسمائهم التي هي: أبجد، هوّز، حطي، كلمن، سفعص، قرشت، ولما كانت هذه الأسماء غير جامعة للحروف العربية، جمعوا ما بقي منها في لفظين وألحقوهما بأسمائهم وهما ثخذ، ضطع، وسمّوها بالروادف.

5- وقيل أوّل من استعملها الحميريون من أهل اليمن، وكانوا يكتبون بحروف متّصلة بعضها ببعض مختلفة باختلاف موقعها، وكانوا يسمّونها بالمسند، لاشتغالها على علامات تفصل الكلمة بعضها عن بعض، ثم انتقلت منهم إلى الحيرة ثم إلى مكة المكرمة¹¹.

حالة الكتابة العربية قبل الرسم العثماني: من المعلوم بديهية أنّ الكتابة العربية كانت منتشرة قبل الرسم العثماني، غير أنّ الدارسين لحالة الكتابة قبل مجيء الإسلام سجّلوا لنا اضطرابات كثيرة، فهذا الإمام ابن قتيبة -رحمه الله تعالى- (ت: 276 هـ) يقول: "وكانت الكتابة في العرب قليلة"¹²، ويقول عن الصحابة وهو يتحدث عن إذن النبي صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمرو بتقييد الحديث: "...وكان غيره من الصحابة أميين، لا يكتب منهم إلا الواحد والاثنان، وإذا كتب لم يُتقن ولم يصب التهيي"¹³.

فهذه إشارة بيّنة من كلام ابن قتيبة على أنّ الكتابة العربية عند العرب قبل مجيء الإسلام كانت قليلة جدا مع إقراره بوجودها.

وهناك رأي مغاير لرأي ابن قتيبة وهو رأي الإمام البلوي (ت: 604 هـ) الذي جنح إلى أنّ الكتابة كانت منعدمة عند العرب في الجاهلية، وأنّ الشعر قد جعل لهم عوضا عنها¹⁴.

¹⁰ نفس المرجع السابق والصفحة.

⁵ ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري) - المعارف - دار إحياء التراث العربي - بيروت - ط: 02 - سنة 1970 - ص: 130.

¹³ ابن قتيبة - تأويل مختلف الحديث - مطبعة كردستان العلمية بمصر - د. ط - سنة 1326 هـ - ص: 366.

¹⁴ البلوي (أبو الحجاج يوسف بن محمد) - ألف با - جمعية المعارف بمصر - د. ط - سنة 1287 هـ - ج 1 - ص: 70.

وهذا الرأي قد جنح إليه عدد كبير من الدارسين المحدثين، فقد انساقوا إليه بدعوى أمية العرب قبل الإسلام وندرة الكتابة بينهم، كما عبّر على ذلك الأستاذ حفني ناصف بقوله " فإذا وُجد فيهم من يكتب ويقرأ، فإنّما هو نزيلٌ هبط إليهم، أو آيَّبٌ من سفر بعد طول إقامة في أرض متحضّرة، أو أخذ عن هذين وهو نادر¹⁵.

ويتبنى الأستاذ إبراهيم أنيس هذا الكلام، ويقول بشيوع الأمية في شبه الجزيرة، وأنّ العرب لم يكونوا أهل كتابة وقراءة¹⁶.

وقد ردّ على هذا الكلام العديد من الدارسين القدامى و المحدثين، فهذا العلامة أحمد بن فارس (ت: 395هـ) يقول: " فإنّا لم نزعّم أنّ العرب كلّها مدرا ووبرا قد عرفوا الكتابة كلّها والحروف أجمعها، وما العرب في قديم الزمان إلّا كنحن اليوم، فما كل يعرف الكتابة والقراءة"¹⁷ ويقول علم الدين السخاوي (ت: 643هـ) " فإنّك وما تراه من قول من يقول " لم تكن العرب أهل كتابة ولا أقلام"¹⁸ فهذين العلّمين -رحمة الله عليهما- ذهبا إلى أنّ العرب أمة كان فيها من يعرف الكتابة والقراءة وكان فيها خلاف ذلك، غير أنّ الغالب على الأمة العربية إذ ذاك هي الأمية وإلى ذلك أشار ربّنا سبحانه بقوله: "هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ " (الجمعة: 02) فوصف الله الأمة العربية بأنّها أمة أمية لا تقرأ ولا تكتب، وذلك على سبيل التغليب لأنّ الغالب عليهم الأمية.

ومن خلال دراستي لهذا الأمر وقفت على كلام نفيس للدكتور غانم قدوري الحمد في كتابه: "رسم المصحف" حيث قال: "... لكنّ نفي معرفة العرب للكتابة قبل الإسلام إلى حد النُدرة إخلال بالمنهج السديد، وردّ للروايات والشواهد التي تؤكد أنّه قد كان للكتابة العربية شأن قبل الإسلام، سواء في قلب الجزيرة أم في أطرافها، فلم تُعدّ معرفة عرب الجاهلية للكتابة موطن شك، فإنّ كثرةً منهم في الحواضر وقلةً منهم في البادية كانت تقرأ وتكتب، وجاء في القرآن الكريم ما يفيد معرفة عرب الجاهلية القريبة من الإسلام القراءة والكتابة، فقد تكررت في كثير من الآيات مادة (كتب) وما في معناها¹⁹، واسم آلات

¹⁵ حفني ناصف - تاريخ الأدب أو حياة اللغة العربية - مكتبة جامعة القاهرة - ط: 02 - سنة 1958 - ص: 34.

¹⁶ الدكتور إبراهيم أنيس - في اللهجات العربية - مكتبة الأنجلوا المصرية - القاهرة - ط: 03 - سنة 1965 - ص: 33.

¹⁷ أحمد بن فارس - الصحاحي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها - المكتبة السلفية - القاهرة - د.ط - سنة 1910 - ص: 08.

¹⁸ السخاوي - علي بن عبد الصمد - الوسيلة إلى كشف العقيلة - مخطوط دار الكتب المصرية - رقم: 30 - ورقة رقم: 15.

¹⁹ وذلك مثل قوله تعالى، "وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تُملى عليه " (الفرقان: 05) وقوله: "اقرأ باسم ربك الذي خلق " (العلق

01) وقوله: اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا (الإسراء: 14) وقوله أيضا " ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر " (الأنبياء:

(104).

الكتابة²⁰، ولا تعقل مخاطبة القرآن الكريم قوما بهذه الآيات لو لم يكونوا على علم وبصيرة بالقراءة والكتابة، والقرآن الكريم أصدق وثيقة تحدثنا عن حياة العرب في ذلك العهد²¹.

ويمكننا لإظهار حالة الكتابة العربية عند العرب قبل الرسم العثماني، أن نشير إلى ممارسات كتابية متعددة، سواء في مدن الحجاز أو في الحواضر العربية في أطراف الجزيرة الشمالية، ففي مكة رغم أن الحياة لم تكن بالغة التحضر بالنسبة لذلك العهد، وأن دواعي الكتابة كانت محدودة، إلا أنه من الإجحاف إنكار ما حرّره أحيانا لبعض العهود والمخالفات بينهم وبين القبائل المجاورة، رغم أن ذلك كان في نطاق ضيق²².

فمكة مثلا بلدة مقدّسة عبارة عن عاصمة ثقافية وتجارية، من المفروض أن يكون بين سكّانها جماعة من المثقفين والباحثين في أمور الدين ومن القراء الكاتبين²³.

ونشير بعض كتب السيرة النبوية إلى أن ورقة بن نوفل كان يكتب الكتاب العربي والكتاب العبراني²⁴، وحين قاطعت قريش الرسول صلى الله عليه وسلم في بداية الدعوة بمكة كتبوا كتابا بذلك وعلّقوه في جوف الكعبة²⁵ فلو لم يكونوا على علم ودراية بالقراءة والكتابة – أعني البعض منهم – لما فعلوا ذلك. ويذكر ابن النديم أنه رأى في خزانة المأمون الخليفة العباسي كتابا بخط عبد المطلب بن هاشم، فيه ذكر حقّه على فلان بن فلان الحميري²⁶.

²⁰ وذلك كذكر القلم في قوله تعالى "ن"، والقلم وما يسطرون" (القلم 01)، والقرطاس في قوله تعالى: "تجعلونها قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا" (الأنعام: 92)، والكتاب في قوله تعالى "كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته" (ص: 28) واللوح في قوله تعالى: "في لوح محفوظ" (البروج: 2).

²¹ غانم قدوري الحمد – رسم المصحف دراسة لغوية تاريخية – اللجنة الوطنية للاحتفال بمطلع القرن الخامس عشر الهجري – بغداد – ط. 01 – سنة 1402 هـ - 1982 م، ص: 23.

²² محمد حميد الله – مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي – لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة – د. ط. سنة: 1941 ص:

²³ ولا كيف نعلل كتابة كُتّاب الوحي بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم من أمثال: علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وأبي بن كعب.... وهؤلاء كلهم مخضرمون أدركوا الجاهلية والإسلام.

²⁴ جواد علي – السيرة النبوية – دار صادر – بيروت – د. ط. د. ت. ص 147.

²⁵ ابن سعد (محمد) – الطبقات الكبرى – دار صادر – بيروت – د. ط. سنة 1957 هـ - ج 1 - ص: 208.

²⁶ ابن النديم (محمد بن إسحاق) - الفهرست - مكتبة ليبسك - د. ط.

- سنة 1871 م - ص: 05.

ولقد أشار الدكتور غانم قدوري الحمد إلى أنّ كتب التاريخ قد ذكرت استعمال العرب للكتابة في مكة في وقت مبكر، فقصي بن كلاب يكتب من مكة إلى أخيه من أمّه رزاح بن ربيعة بن حرام العذري في مشارف الشام يدعوه إلى نصرته والقيام معه في منازعة خزاعة وبني بكر أمر مكة²⁷.

وإذا انتقلنا إلى كتاب فتوح البلدان للبلاذري، نجد أنّه قد أورد أسماء لرجال يعلمون الكتابة والقراءة وذلك في قوله: "دخل الإسلام وفي قريش سبعة عشر رجلا كلهم يكتب.... إلى أن قال عن الكتابة في المدينة المنورة: "إنّ الإسلام جاء وفيهم عدد يكتبون ومنهم أحد عشر كاتباً"²⁸.

وقد أشار الواقدي رحمة الله عليه (ت: 207 هـ) إلى أنّ بعض اليهود قد علّم كتابة العربية، وكان يُعلّمها الصّبيان بالمدينة في الزمن الأول²⁹.

وإذا انتقلنا من قلب الجزيرة إلى أطرافها الشمالية نجد الروايات العربية تكثّر مؤكّدة استخدام الكتابة على نطاق واسع، فهذا حمّاد جدّ عدي بن زيد الشاعر (ت: 590 م) قد كتب للنّعمان الأكبر، وأنّ عديّا كان يكتب بالعربية لملك فارس، وما دام عديّ يستخدم العربية في ديوان ملك فارس فإنّه من المنطقي أن تكون الكتابة العربية هي المستعملة في إمارة المناذرة في الحيرة³⁰.

وقد ذكر ابن قتيبة قصة في كتابه الشعر والشعراء تبين هذا الكلام، ومفادها أنّ الشاعرين المتلمس وطرفة بن العبد قدّما على عمرو بن هند ملك الحيرة، فكتب لهما كتابين إلى عامله في البحرين يأمره بقتلهما، وأخبرهما أنّه كتب لهما بجائزة، فأعطى الشاعر المتلمس صحيفته لغلام من غلمان الحيرة فقرأها له ونجا بنفسه³¹ فهذه القصة فيها دليل واضح على شيوع الكتابة العربية في البحرين.

ومهما يكن فإنّ الكتابة قبل مجيئ الإسلام كانت نادرة عند العرب وذلك لبعدهم عن الحضارة، ولم يكن فيهم ممّن يحسن الكتابة والقراءة إلا النزر القليل، ولذلك نجد علماء هذا الفن يشهدون بأنّ الإسلام ساهم بشكل كبير في تطور الكتابة وانتشارها، ومن هؤلاء مثلا نجد الإمام علي محمد الضباع في

²⁷ غانم قدوري الحمد - رسم المصحف دراسة لغوية تاريخية - ص: 24.

²⁸ البلاذري (أحمد بن يحيى بن جابر البغدادي) - فتوح البلدان - شركة بيع الكتب العربية - القاهرة ط: 1 - سنة 1901 م - ص: 477، وانظر: ابن عبد ربه (أبو عمر أحمد بن محمد الأندلسي) - العقد الفريد - لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة - د. ط - د. ت - ج: 4 - ص: 157.

²⁹ البلاذري (أحمد بن يحيى بن جابر البغدادي) - فتوح البلدان - ص: 479.

³⁰ غانم قدوري الحمد - رسم المصحف دراسة لغوية تاريخية - ص: 26.

³¹ ابن قتيبة - الشعر والشعراء - دار المعارف - مصر - ط: 2، سنة: 1966 - ج: 1 - ص: 228.

كتابه سمير الطالبين حيث قال رحمه الله: "...ثم لما تمت الهجرة إلى المدينة المنورة ووقعت غزوة بدر أسر الأنصار سبعين قرشياً فجعلوا على كل أسير فداء من المال، وعلى كل من عجز عن الافتداء بالمال أن يعلم الكتابة لعشرة من صبيان المدينة، ولم تكن الكتابة بها قبلئذ³² فبذلك كثرت فيها الكتابة، وصارت تنتشر في كل ناحية فتحها الإسلام في حياته صلى الله عليه وسلم وبعد وفاته"³³.

أصل الكتابة العربية عند القدامى والمحدثين.

1- عند العلماء القدامى: اختلفت آراء العلماء القدامى في أصل الكتابة العربية عموماً، والتي كُتِبَ بها القرآن الكريم خصوصاً، ولذلك نجدها متضاربة مختلفة، كما حرّر ذلك العلامة أحمد بن فارس الذي يرى أن الخط توقيف من الله مستنداً في ذلك إلى نصوص قرآنية كقوله تعالى: "وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا" (البقرة:30).

وعلى هذا الأساس يقول ابن فارس رحمه الله تعالى: "ليس ببعيد أن يُوقِفَ آدم عليه السلام أو غيره من الأنبياء عليهم السلام على الكتاب"³⁴.

وهناك رأي آخر تبناه الإمام السيوطي رحمه الله تعالى حيث روى عن كعب الأخبار (ت:32هـ) أنه قال أول من وضع الخط العربي والسرياني وسائر الكتب آدم عليه السلام قبل موته بثلاثمائة سنة، كتبه في الطين ثم طبخه، فلما انقضى ما كان، أصاب الأرض من الغرق، وجد كل قوم كتابهم فكتبوا به، فكان إسماعيل عليه السلام قد وجد كتاب العرب"³⁵.

وجاء في كتاب عيون الأخبار للإمام ابن قتيبة³⁶ أن أول من خط بالقلم بعد آدم هو نبي الله إدريس عليه السلام، في حين ذكر القلقشندي³⁷ أن أول من كتب الخط العربي هو حمير بن سبأ.

³² هذا كلام فيه تحفظ فإن المدينة المنورة كان فيها من يعرف الكتابة والقراءة قبل مجيء الإسلام ومن هؤلاء اليهود والنصارى وكذا كعب بن مالك وعبد الله بن رواحة وسعد بن معاذ وسعد بن عباد كما جاء في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم.

³³ علي محمد الضباع – سمير الطالبين في رسم وضبط الكتاب المبين – ص:15

³⁴ ابن فارس- الصحابي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها- ص:07.

³⁵ السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن)- الإتيان في علوم القرآن- مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني- القاهرة – ط1: – 1967 – ج:04-ص:145.

³⁶ ابن قتيبة – عيون الأخبار – دار الكتب المصرية – القاهرة – د.ط- 1925- ج1: – ص:43.

³⁷ القلقشندي – صبح الأعشى في صناعة الإنشا – ج:03، ص:13.

وهذه الروايات مهما تشعبت وتنوعت، فإنّها تفتقر إلى التحقيق والتدقيق بخلاف الرأي الأول الذي رأى بأنّ أصل الكتابة العربية هو التوقيف وذكر في ذلك أدلة من القرآن الكريم صحيحة غير صريحة في الاستدلال.

وقد أشار الدكتور غانم قدوري الحمد إلى أنّ غالب الروايات التي تدل على أصل الخط العربي ضعيفة، إنّ لم تكن من قبيل الخرافة حيث يقول: "وكذلك يمكن القول في الرواية التي تزعم أنّ أول من وضع الخط العربي جماعة هم: أبجد وهوز وحطي وكلمن وسعفس وقرشت، وهم قوم من الأوائل نزلوا عند عدنان بن أدد، فاستعربوا ووضعوا الكتاب العربي على أسمائهم، ولما وجدوا أحرفا ليست من أسمائهم، ألحقوها بها وسَمّوها الروادف... إلى أنّ يقول: "وهذه الروايات ممّا يغلب عليها طابع الخرافة، ممّا لا يقبله منهم التحقيق العلمي والوقائع التاريخية، وليس أدل على الخرافة فيها من أنّ بعض أصحابها قد أخذ الترتيب الأبجدي للحروف وجعله أسماء ملوك من العرب العاربة..."³⁸.

ومهما يكن فإنّ هذه الروايات تمثل وجهة نظر صاحبها تبنّاها بما وصله من أدلّة، سواء أكانت صوابا أم خطأ، وعليه سأنقل إلى روايات عن أصل الخط العربي أكثر جدية ذكرها صاحب كتاب الجمهرة³⁹ حيث ذكر أنّ هذا الخط كان يسمى في الجاهلية (الجُزْم)، مع خلاف في سبب تسميته، إذ نقل السجستاني (ت: 248 هـ) أصل تسميته بالجزم بالأخذ، لأنّه جُزِم به من المسند أي أخذ منه⁴⁰.

وذهب ابن خلدون رحمه الله تعالى (ت: 808 هـ)⁴¹ أنّ الخط من الصنائع الحضريّة، وأنّه من جملة الصنائع المدنيّة المعاشيّة، وأنّ جودة الخط إنّما تكون على قدر الاجتماع وال عمران، وهو بذلك يرى أنّ الخط العربي قد انتقل من اليمن، حيث بلغ فيه درجة عالية من الإتقان والجودة في دولة التبابعة- وهو المسمّى بالخط الحميري- إلى الحيرة حيث دول آل المنذر نُسباء التبابعة، ولم يكن الخط عندهم من الإجابة كما كان عند التبابعة لقصور ما بين الدولتين، ومن الحيرة لقّنه أهل الطائف وقريش.

وعلى العموم فإنّ كلام ابن خلدون رحمه الله تعالى أقرب ما يكون إلى الصواب، وذلك لأنّ صناعة الخط كغيرها من العلوم تنساق حول الحضارة طوعا أو كرها، فعلى سبيل المثال العلم الشرعي - الديني - على مدار التاريخ قد انساق حول عواصم الخلافة الإسلامية، فلمّا كانت الخلافة بالمدينة كان أغلب

³⁸ غانم قدوري الحمد - رسم المصحف دراسة لغوية تاريخية - ص: 30.

³⁹ ابن دريد (أبو بكر محمد بن الحسن) - جمهرة اللغة- دائرة المعارف العثمانية - حيدر آباد- د.ط - 1345 هـ - ج: 2- ص: 91.

⁴⁰ ابن جني (عثمان أبو الفتح) - سر صناعة الإعراب - مصطفى البابي الحلبي - القاهرة - ط: 1 - 1954 - ج: 1 - ص: 45.

⁴¹ ابن خلدون - كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر - دار الكتاب اللبناني - بيروت - د.ط- سنة: 1956 - ج: 1 - ص: 755-756.

العلماء في المدينة المنورة من أمثال: سعيد بن المسيّب ومحمد بن شهاب، الزهري، ومالك بن أنس.... ولما نقل الأمويّون الخلافة إلى دمشق صار أغلب العلماء منها كالأوزاعي وقتيبة بن سعيد....، ولما نقل المنصور الخلافة العباسية إلى بغداد صار أغلب العلماء بها كالقاضي عبد الوهاب...، بل صارت بغداد حاضنة العلم، لكن بعد سقوطها على يد التتار وقيام الدولة المملوكية بالشام صار أغلب العلماء بالشام كالنووي والبلقيني وابن تيمية.... فهذا العلم الشرعي قد انساق حول الحضارة والتمدّن، فعلم الخط من باب أولى.

وهناك رأي آخر نقله البلاذري عن أبي الكلب عن الشرقي بن القطامي (ت: 155هـ) أنّه قال: "اجتمع ثلاثة نفر من طي ببقّة، وهم: مرامر بن مرة وأسلم بن سدره وعامر بن جدرة، فوضعوا الخط، وقاسوا هجاء العربية على هجاء السريانية، فتعلّمه منهم قوم من أهل الأنبار، ثم تعلّمه أهل الحيرة من أهل الأنبار"⁴².

ونقل ابن النديم -رحمه الله تعالى- هذه الرواية عن ابن عباس رضي الله عنهما حيث قال: "أول من كتب بالعربية ثلاثة رجال من بولان، وهي قبيلة سكنت الأنبار، وأنّهم اجتمعوا فوضعوا حروفا مقطّعة وموصولة وهم مرامر بن مرة، وأسلم بن سدره، وعامر بن جدرة، فأما مرامر فوضع الصور، وأما أسلم ففصل ووصل، وأما عامر فوضع الإعجام"⁴³.

فهذه الروايات تدل على أنّ الخط العربي قد اقتبس من الخط السرياني الذي سمّاه ابن النديم⁴⁴: أسطر نجالا، غير أنّ الدارسين المحقّقين لم يسلموا بهذا الأمر واستبعدوه كليّة ومن هؤلاء جورج زيدان⁴⁵ الذي نفى أنّ تكون الكتابة السريانية⁴⁶ إحدى مراحل الخط العربي، حيث أنّ لكل منها تاريخ تطوره المستقل عن الخط الآرامي⁴⁷، وعلل تشابه الحروف والخصائص بين اللغتين كونها خضعت لظروف واحدة و أدوار متشابهة.

⁴² البطلوسي (عبد الله بن محمد بن سيد) -الاقتضاب في شرح أدب الكتاب - دار الجيل - بيروت - د. ط - 1973 - ص: 88.

⁴³ ابن النديم - الفهرست - ص: 4، 5.

⁴⁴ ابن النديم - الفهرست - ص: 12.

⁴⁵ جورج زيدان - تاريخ أدب اللغة العربية - دار الهلال - د. ط - 1957 - ج: 1 - ص: 227.

⁴⁶ اللغة السريانية لغة سامية مشتقة من اللغة الآرامية، ويعتبرها بعض الباحثين تطورا طبيعيا لها موحدتين بين اللغتين. يُنظر: المطران إقليس يوسف داوود - اللمعة الشهية في نمو اللغة السريانية - مطابع الإباء - دمشق - د. ط - 1996 - ص: 9.

⁴⁷ اللغة الآرامية، هي أصل اللغة السريانية نشأت في الألف الأول قبل الميلاد لتكون العائلة الثالثة ضمن عائلة اللغات السامية، يُنظر: نفس المرجع السابق والصفحة.

2- عند العلماء المحدثين: بعد الاطلاع على آراء العلماء القدامى ووجهتهم في أصل الكتابة العربية تبين لنا أنها في معظمها غير دقيقة تعتمد على السرد القصصي أكثر منه التحقيق العلمي، ننتقل إلى رأي المحدثين الذي سلكوا طريقا مغايرا نوعا ما عما ذهب إليه القدامى حيث اعتمدوا على نقوش عربية قديمة مكتوبة بأحد فروع الخط النبطي المتأخر، الشبيه بالخطوط العربية القديمة، وهذا ما يُعدّ دراسة مقارنة بين الخطوط، وعليه يمكننا القول هنا أنّ الاكتشافات الأثرية في جزيرة العرب قد أدّت إلى التمييز بين نوعين من الخطوط التي كانت مستعملة عند العرب فيما قبل الإسلام وهما:

أ- الخط العربي الذي دُوّن به القرآن الكريم، والذي يعرف بالشمالى تميزا له عن الآخر.

ب- الخط العربي القديم في جنوب الجزيرة العربية، والذي عُرف في المصادر العربية باسم المسند، وإن كان وقع الخلاف في سبب تسميته⁴⁸.

وقد عُثر على بعض النقوش المدوّنة بخط المسند، ليس في أرض اليمن والجزيرة فحسب، بل تعداها إلى بلاد مصر ووصل إلى جزيرة اليونان وأطراف العراق، وعلى ذلك ثبت علمياً أنّ المسند كان معروفا وشائعاً قبل الإسلام في كل شبه جزيرة العرب، وربما كان القلم العام للعرب قبل ميلاد المسيح، فهو أقدم الأقلام التي عُرفت في شبه جزيرة العرب حتى الآن⁴⁹.

ويذكر الدكتور غانم قدوري الحمد⁵⁰ أنّ استعمال خط المسند امتد حتى القرن الخامس الميلادي وربما إلى القرن السادس، أي أنّ هذا الخط قد زال عن الاستعمال قبل مجيء الإسلام، وأما عن بدايته فهي غير واضحة، ويعتقد أنّه مشتق من الخط الفينيقي أو أنّه متفرع عن الأبجدية السينائية التي انحدر عنها الخط الفينيقي.

وقد اختلف في تاريخ أقدم الكتابات المدونة بالمسند فمنهم من يرجعها إلى سنة 1500 أو 1300 قبل الميلاد، على حين يرتفع آخرون بتاريخ أقدم كتابة عُثر عليها بالمسند إلى أكثر من 800 أو 700 سنة قبل الميلاد، وهذه التواريخ لها دور كبير في معرفة أصل منشأ هذا الخط العربي⁵¹.

⁴⁸ القلقشندي - صبح الأعشى في صناعة الانشا - ج: 3 - ص: 13، وجواد علي - تاريخ العرب قبل الإسلام - المجمع العلمي العراقي - بغداد - د. ط - 1950 - ج: 1 - ص: 197-198.

⁴⁹ نفس المرجع السابق - ج: 1 - ص: 192.

⁵⁰ غانم قدوري الحمد - رسم المصحف دراسة لغوية تاريخية - ص: 39.

⁵¹ جواد علي - تاريخ العرب قبل الإسلام - ج: 1 - ص: 209.

والخط المسند يتألف من تسعة وعشرين حرفاً، وأبجديته مثل الأبجديات السامية الأخرى من حيث أنها تتألف من الحروف الصامتة، ولا حركة في الكتابة بها، ولا ضبط في أواخر الكلمات، ولا علامة للسكون أو التشديد، وقد يُكتب الحرف المشدد مرتين، وتكتب الحروف في كلمة واحدة منفصلة، ولذلك فإن شكل الحرف لا يتغير بتغير موضعه في الكلمة، ويفصل بين الكلمة والكلمة التي تليها فاصل وهو خط عمودي مستقيم، وتُقرأ الكتابة من اليمين إلى اليسار أو بالعكس، ويُمزج بين الطريقتين أحياناً⁵².

ومما يجب الإشارة إليه هنا أن الكتابة العربية الشمالية عند العرب ليست متطورة عن الخط المسند وذلك مع انتشار هذا الخط في شمال الجزيرة لعدة قرون قبل الميلاد وبعده إلى ما قبيل الإسلام وهذا ما أرجعه بعض الباحثين⁵³ إلى تدهور أحوال اليمن في الفترة المتأخرة قبل الإسلام وطبيعة الخط المسند وفروعه وما تمتاز به من أشكال دقيقة صعبة الرسم التي قد تفسّر لنا ذلك الإهمال الذي أصاب المسند وانحساره أمام الخطوط المنحدرة والتي نمتاز بالمرونة والسهولة، ولا سيما في الكتابة على القراطيس⁵⁴.

وعلى هذا كله يمكن أن نبين رأي الدارسين المحدثين في أصل الخط العربي بأنه خط المسند الذي عرفه العرب بقرون كثيرة قبل الإسلام، وإن كان يختلف على ما هي عليه الخطوط اليوم، ويعدّ رأيهم أقرب إلى الدقة والتحقيق العلمي من رأي العلماء القدامى، وذلك لأن اعتمادهم كان على نقوش عربية وجدت مؤخراً وكذا أثريات اعتمدوا عليها في إبداء رأيهم، وهذا ما يجعل مذهبهم أقرب إلى الصواب من غيرهم والله أعلم.

الخاتمة:

وخلاصة قولنا إن العرب قبل الإسلام لم يكونوا أميين بما تحمله الكلمة من معان، وإن وصفهم بالأمية في مواضع كثيرة من القرآن إنما هو وصف على التغليب أي أنّ الغالب عليهم هو الأمية هذا من

⁵² جواد علي - تاريخ العرب قبل الإسلام - ج: 1 ص: 198-199.

⁵³ من بين هؤلاء الباحثين نجد: الدكتور جواد علي والدكتور غانم قدوري الحمد و بلاشير.... وغيرهم.

⁵⁴ غانم قدوري الحمد - رسم المصحف دراسة لغوية تاريخية - ص: 40، وجواد علي - تاريخ العرب قبل الإسلام - ج: 7 - ص: 55.

⁵⁴ عبد الجبار محمود السامرائي - مجلة الواحة - العدد الستون - السنة السادسة عشرة - شتاء 2010 - عنوان الكتابة و القراءة في جزيرة العرب قبل الإسلام.

جهة، ومن جهة أخرى أنّ الأمية بلفظها الشمولي اللغوي لا تعني فقط ترك الكتابة و القراءة، بل لها معان أخرى ومنها ما ذكره الفراء في تعريفه للأميين بقوله⁵⁵ "الأميون هم العرب الذين لم يكن لهم كتاب" يعني بذلك كتاب سماوي ك: التوراة والإنجيل، وهذا ما يوضحه وصف الله عز و جل لليهود والنصارى في القرآن بأنهم أهل كتاب، وأما العرب – على هذا الأساس – فإنّ وصفهم بالأميّة إنما هو على معنى الوثنية أو على سبيل التغليب وهو ما بيناه في بحثنا هذا.

قائمة المصادر والمراجع:

- 1- إبراهيم أنيس – في اللهجات العربية – مكتبة الأنجلوا المصرية – القاهرة – ط 03 - سنة 1965.
- 2- ابن منظور (محمد بن مكرم بن علي) – لسان العرب – دار صادر – بيروت - د. ط – سنة: 1968- ج: 13.
- 3- ابن فارس (أبو الحسن أحمد) – مقاييس اللغة – شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر – ط 2 – سنة 1969 م- ج: 05.
- 4- ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري) – المعارف – دار إحياء التراث العربي – بيروت - الطبعة: 02- سنة 1970.
- 5- ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) – المقدمة: ديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر - د. ط - سنة 1984.
- 6- ابن قتيبة- تأويل مختلف الحديث – مطبعة كردستان العلمية بمصر- د، ط- سنة 1326 هـ.
- 7- ابن النديم (محمد بن إسحاق) -الفهرست- مكتبة ليبسك – د. ط - سنة 1871 م.
- 8- ابن سعد (محمد) – الطبقات الكبرى – دار صادر – بيروت – د. ط - سنة 1957 هـ- ج 1.
- 9- ابن عبد ربّه (أبو عمر أحمد بن محمد الأندلسي) -العقد الفريد - لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة – د- ط- د-ت ج 4..
- 10- ابن قتيبة – الشعر والشعراء – دار المعارف – مصر- ط-2 سنة: 1966 - ج 1.
- 11- ابن فارس، الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها.

- 12- ابن قتيبة - عيون الأخبار - دار الكتب المصرية - القاهرة - د - ط - 1925 - ج 1 -
- 13- ابن دريد (أبو بكر محمد بن الحسن) - جمهرة اللغة - دائرة المعارف العثمانية - حيدر آباد - د. ط - 1345 هـ - ج 2.
- 14- ابن جني (عثمان أبو الفتح) - سر صناعة الإعراب - مصطفى البابي الحلبي - القاهرة - ط 1 - 1954 - ج 1.
- 15- ابن خلدون - كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر - دار الكتاب اللبناني - بيروت - د. ط - سنة: 1956 - ج 1.
- 16- أحمد بن فارس- الصحابي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها - المكتبة السلفية - القاهرة - د. ط - سنة 1910 .
- 17- البلوي (أبو الحجاج يوسف بن محمد) - ألف با - جمعية المعارف بمصر - د. ط - سنة 1287 هـ - ج 1.
- 18- البطليلوسي (عبد الله بن محمد بن سيد) - الاقتضاب في شرح أدب الكتاب - دار الجبل - بيروت - د - ط - 1973 .
- 19- البلاذري (أحمد بن يحيى بن جابر البغدادي) - فتوح البلدان - شركة بيع الكتب العربية - القاهرة - ط 1 - سنة: 1901 م.
- 20- السخاوي - علي بن عبد الصمد - الوسيلة إلى كشف العقيلة - مخطوط دار الكتب المصرية - رقم: 30 - ورقة رقم: 15.
- 21- السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن) - الإتقان في علوم القرآن - مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني - القاهرة - ط 1 - 1967 - ج 04.
- 22- القلقشندي (أحمد بن علي) - صبح الأعشى في صناعة الانشا - د. ط - سنة 2004. ج : 01 .
- 23- المطران إقليس يوسف داوود - اللمعة الشهية في نحو اللغة السريانية- مطابع الإباء- دمشق - د- ط - 1996.
- 24- جورج زيدان - تاريخ آداب اللغة العربية - دار الهلال - د ، ط - سنة 1957 - ج 1.
- 25- جواد علي - السيرة النبوية - دار صادر - بيروت - د ط - د ت
- 26- حفني ناصف - تاريخ الأدب أو حياة اللغة العربية - مكتبة جامعة القاهرة - ط 2 - سنة 1958.
- 11- إبراهيم أنيس - في اللهجات العربية - مكتبة الأنجلوا المصرية - القاهرة - ط 03 - سنة 1965.
- 27- شلي مصطفى رسلان، وموسى محمد محمود - مهارات الاتصال باللغة العربية - دار العلم للنشر والتوزيع - د. ط - سنة 2007.

- 28- علي محمد الضباع – سمير الطالبين في رسم وضبط الكتاب المبين – طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية – جمهورية مصر العربية – د، ط - د، ت.
- 29- غانم قدوري الحمد – رسم المصحف دراسة لغوية تاريخية – اللجنة الوطنية للاحتفال بمطلع القرن الخامس عشر الهجري – بغداد – ط 01 – سنة 1402 هـ - 1982 م.
- 30- محمد حميد الله – مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي – لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة – د-ط سنة: 1941 .